بحث تكوينى فى الشخصية : أحداث الطفولة*

ترجمة بقلم
أحمد محمود صبحى

الإنسان من أهم مشاكل العصر الحديث : ما الذى نعرفه عنه ؟ وكيف نعبر عن معرفتنا إياه ؟ وما هى أهم الموضوعات والنظم التى يتأثر بها ويؤثر فيها ؟ وكيف ذلك ؟ ما هى أهم الخبرات التى يمر بها وماهى أهم الأحداث التى تعرض له ، كل هذه وغيرها مشاكل أثيرت منذ القدم ، على أننا الآن فى أشد الحاجة كى نتلقى جواباً حاسما شافياً .

والعلم الذى يعنى بحياة الإنسان والعوامل التى تؤثر فى هذه الحياة ، والذى يبين نواحى الخلاف بين الأشخاص والذى يعرض لنماذج الشخصية يسمى بعلم الشخصية personology وهذا العلم يتناول الإنسان كوحدة وهو بهذا المعنى مصادره من التحليل النفسى عند فرويد وعلم النفس التحليلى عند يونج وعلم النفس الفردى عند أدلر ومسائل أخرى منهجية أو مذهبية أكثر منها حقائق للمعرفة .

غايتنا إذن أن نقيم نظرية فى الشخصية تعرفنا كل ما يمكن أن يعزى إليها وكل الحقائق الأساسية التى تنطوى عليها .

على أننا إذا تناولنا الأحداث التى تعرض للكائن الحى لا نستطيع أن نتناول المنبهات الحاضرة التى أثارت سلوكه ، لأن حياته سلسلة من الآنات المتصلة الممتدة منذ لحظة الميلاد إلى الممات ، وهذا ما نعنيه من قولنا إننا نتناول الإنسان كوحدة ، إذ أن التجارب قد دلت على أن اختلاف الشخصيات راجع إلى اختلاف الخبرات الماضية ، اختلاف تلك المنبهات التى تعرض لها الإنسان فى باكورة حياته ، إذ أن هذه المنبهات تترك فى النفس . مخلفات trauma ، فعنايتنا بماضى الفرد راجعة إلى ما تركته حياته الأولى فى نفسه من أثر أو ذكرى

* ترجمة وتلخيص عن كتاب Exploration in Personality by Henry Murray

هى جزء من الحالة النفسية الحالية له .

ذلك هو السبب الذى حفزنا أن نعنى عناية خاصة بالناحية التكوينية من الشخصية . وما أن وطدنا النفس على ذلك حتى ولينا وجهنا شطر التحليل النفسى . لا على أنه كل شىء . إذ أننا قد استعنا بمصادر أخرى وإنما لأن المحللين النفسيين هم أول من لفتوا الأنظار إلى أهمية الحياة الأولى بما تدعه فى النفس من مخلفات وإلى ديمومة هذه المخلفات وعدم انمحاء آثارها وإلى تأثيرها فى تشكيل سلوك الفرد . ولقد استندوا فى رأيهم هذا إلى البحوث الإكلينيكية التى بينت أن الأمراض العصابية التى يصاب بها البالغون لا يمكن معرفة عللها إلا على ضوء الأحداث التى وقعت فى عهد الطفولة .

لم يؤثر هذا الشخص العزلة ؟ ولم يهاب مواجهة الجنس الآخر ويخجل من الحديث معه ؟ ولم يحب شخص آخر الرياضة ؟ بل ما علة عسر الهضم عند هذا الشخص إن كان فى عسر الهضم أمر نفسى ؟ كل هذه وغيرها أنماط من السلوك غير مرتبطة بهذه اللحظة فحسب حتى نفسرها على ضوء الآن وإنما ترجع إلى إصابات trauma سببتها وقعت فى عهد الطفولة . فالكائن الحى يحيى ماضيه فى حاضره ولا يعتبر حاضره إلا آونة بسيطة من آنات بين ماض قد انقضى ومستقبل سوف يأتى .

على أن البحث فى أحداث الطفولة يواجه مشكلة عسيرة من حيث أن الطفل عاجز عن أن يفصح عن مشكلته النفسية ، كما أن البالغ قاصر عن أن يذكر شيئاً كثيراً عن طفولته لا سيما ما يمس السنوات الثلاثة الأولى . التى اعتبرها كثير من علماء النفس من أهم المراحل التى يجب العناية بها فى أى دراسة تكوينية ، والسبب فى ذلك هو ما ذكره يونج من وجود التشابه بين خيالات الأطفال فى هذه الفترة رغم تباين أحوال معيشتهم . ولما كان من العسير أن نرجع هذا التباين إلى البيئة حيث أن هذه الخيالات موجودة فى سن مبكرة جداً . كان من الضرورى أن نسلم بأصول فطرية لهذه الخيالات archetypal fantasies . ولا يعنى يونج بذلك أن الخيالات ذاتها متوارثة . وإنما أن المنبهات التى أثارت الخيالات واحدة عند جميع الأطفال فى كل زمان ومكان : فالأنماط السلوكية المعبرة عن هذه الخيالات قد تكون مختلفة ولكن أصولها الصادرة عنها فطرية . ولقد أيد هذا المعنى ما لاحظه صمويل

بوتلر Samuel Buttler من التشابه بين خيالات الأطفال وهذيان المجانين من ناحية وبين أقاصيص العامة والأساطير البدائية من ناحية أخرى ؛ من حيث أن جميعها لا تخضع للمنطق . الأمر الذى يوحى بالقول أن المسئول الأول عن الأساطير البدائية هو البدائى الطفل أكثر من أن يكون البدائى البالغ . ويرى كل طفل فى مناهه شيئاً يعتبر ضرباً من التكهن عن البلوغ بواسطة هذه الأنماط المتأصلة وتعمل الظروف الخارجية على نموها ؛ حينئذ ترتد هذه الخيالات إلى أغوار اللاشعور مرتبطة فى ذهن الطفل بالموضوعات الخارجية برباط غير منطقى ، ومن هنا كان واجب الباحث النفسى فى أحداث الطفولة دراسة هذه الأصول الفطرية للخيالات التى يعتبر سلوك الطفل رد فعل لها . ولم يقطع التحليل النفسى شوطاً كبيراً فى هذا المضمار . إذ أنه اعتنى بظواهر لها قيمتها من الناحية الجنسية متجاوزاً عن ظواهر أخرى هامة . ولكن مهما قيل فى نظرية فرويد فلا شك أنها قد كشفت النقاب عن كثير من النواحى الهامة لنشاط الطفل وأهمها : المص — عض حلمة الثدى — الإخراج سواء البول أو البراز — مص الإبهام الصراخ الحاد إذا حرم من شىء — الزحف — تعلم الشىء من جهة حبه للاستطلاع — حبه للسيطرة وتسلطه على الأشياء الضعيفة وتخيله القضاء على الأشياء القوية — اللعب بعضو التناسل — استطلاعه عن كيفية الولادة وأحوالها بعد ميلاد أخ جديد — حبه للتخريب — القلق والخوف من وقوع عدوان عليه على أن هناك أشياء خاصة تثير اهتمام الطفل : أجزاء خاصة من جسمه — ما يأكله وما يخرجه — أعضاء خاصة فى جسم أمه كالثدى — أبوه والاختلاف الظاهر بينه وبين أمه ؛ ثم إن هناك أحداث خاصة يمر بها كل طفل مثل : الميلاد — بروز الأسنان — الفطام — تعلم المشى — التزين وتعلمه النظام — حبه لأحد الأبوين من الجنس الآخر — ثم إن هناك أحداثا تزعجه : المرض — وقوع حادث له — دخوله المدرسة وبعده عن أمه والتهديد بالعقاب .

من كل هذه الأشياء تتكون المادة اللازمة للعلم الخاص بحياة الطفل ، وهناك ثغرات كثيرة فى هذه الموضوعات تستلزم التفسير والتعليل .

كما أن الكشف عن الأصول الفطرية للخيالات يستلزم دراسة العمليات النفسية السابقة على الواقع كما أن هذه الأصول سابقة على المنطق وهذه العمليات هى : التلفيقية syncretism حيث لا يمكن الفصل بين الذات والموضوع

الخارجى — الحيوية animinism حيث ينسب الفرد الحياة إلى الموضوعات الجامدة ويراها قادرة على أن تعتدى وأن ترد العدوان له والتقمع symbolisation وهى لازمة فى دراسة الأحلام وما فيها من صور رمزية للموضوعات الخارجية .

دراسة دور الطفوله إذن تتطلب دراسة لأهم الأحداث فى حياة الطفل وعالمها ودراسة خيالاته طبقاً لمنهج يجعلها — بالرغم من أنها لا تخضع للعقل والمنطق — معقولة من الوجهة السيكولوجية ؛ حينئذ نستطيع أن نصل إلى — فكرة مجردة عن مجرى الأحداث ؛ تلك الفكرة أو الصورة التى تظهر كل شخصية والتى تبرز الهيكل المقوم لها .

والمنهج الذى سنستخدمه هنا هو أن نعرض لأهم المنبهات الخارجية التى تعرض للأطفال وما يمكن أن تستثيره هذه المنبهات فى النفس من حوافز وما يمكن أن تخلفه من آثار تشكل سلوك الفرد فيما بعد .

ولا شك أن أهم منبه يستثير قلق الطفل هو فقدان العائل insupport أو الإحساس بضعفه لا سيما بعد حياة لم يكن يحس فيها الطفل برغبة ما حيث كانت حاجاته مشبعة أولا بأول — ألا وهى الحياة فى الرحم . وإجابة حاجات الطفل تولد فى نفسه شعوراً بالطمأنينة والثقة بالعالم الخارجى وموضوعاته .

على أن الطفل ليس فى حاجة إلى إجابة رغباته فحسب بل إحاطة هذه الاستجابة بجو من الحب والعطف ذلك أن الإحساس بالتواكل والاستناد إلى الغير يولد فى نفسه شعوراً بالنقص فهو فى حاجة إلى أن يستعيض عنه بتلقى الحب والعطف بقدر ما يستشعر من النقص والضعف .

ومن أهم الأحداث الخارجية التى لها أثرها فى نفسية الطفل وقوع العدوان عليه سواء من خطر يستشعره أو من حادثة وقعت له حيث تبقى هذه الحادثة ماثلة له تولد فى نفسه اتقاء الخطر Harmavoidance والخوف من الموضوعات الخارجية ؛ وقد ذكر المؤلف حاله إذ وقعت لأحد الأفراد حادثة وهو لم يبلغ بعد الثالثة من عمره ولا زال هذا يذكر الحادث تماما كأنه وقع بالأمس ؛ والحادث يتلخص فى أن صاعقة أصابت بيتا مجاوراً لبيت هذا الفرد فهدمته ثم انطفئت الأنوار وعلا عويل النساء ثم هو يقول .. لقد ملأنى هذا الحادث رعباً وخوفاً .. ولا شك كذلك إن ميلاد أخ جديد يستثير فى نفس الطفل الرغبه فى معرفة مصدر هذا الوليد وكثيراً ما يحاول الأطفال الاستفسار عن ذلك من أمهاتهم

أو من آبائهم ولكنهم فى العادة لا يلقون جواباً مقنعاً الأمر الذى يشعرهم بأن فى الأمر سراً يحاول الطفل ويجاهد أن يعلمه فيتولد فى نفسه حب التطلع والمعرفة لا سيما بالمسائل الغامضة . ويذكر المؤلف حالة لفرد شغوف بالعلوم الغامضة يقول عن نفسه إنه فى سن الخامسة ولد أخ جديد له فسأل أمه عن مصدره فقالت له فى شىء من الضجر « كان مختبئاً فى جوال الدقيق » ولا شك إن مثل هذه الإجابة لا يمكن أن تقنع الطفل ولا شك كذلك فى أنها حفزته إلى معرفة الأمر بل وإلى معرفة كل أمر غامض مبهم .

ولعل أكثر ما يتعرض له الطفل هو الأسلوب الذى يعامله به أبواه وهذا يتفاوت بين القسوة والحرمان وبين العطف الشديد الذى يبلغ حد العصاب فيسلب الطفل قدرته على مواجهة العالم الخارجى ويسلبه الاستقلال فى حياته الذى لم يتعوده فى حياته الأولى . ولا شك أن طفلا لم يعرف فى حياته إلا الخير والعطف سيرى الدنيا فى عينيه مغايرة لذلك الذى لم يلق فى حياته إلا البؤس والحرمان . .

ظاهر مما سبق أننا لا نستطيع أن نغفل ما يقع للطفل فى السنوات الثلاثة الأولى لما لها من أثر فى تشكيل حياته فيما بعد .

ولقد اعتنى المحللون النفسيون بخمس نواح من النشاط اعتبروها أهم النواحى نظراً لما تصادفه رغبة الطفل فيها من عقاب أو حرمان يؤدى إلى كبتها والإلقاء بها فى أغوار اللاشعور حيث تعمد إلى الظهور أو إلى تشكيل السلوك :

١ — الوجود الهادئ الساكن داخل الرحم وما يعقبه من حياة مليئة بالحرمان والأخطار ، فالميلاد هنا صدمة للطفل .

٢ — الإحساس باللذة من الرضاعة حيث الطفل مطمئن إلى ثدى أمه وما يعقب ذلك من فطام يحرم الطفل هذه اللذة .

٣ — الإحساس اللاذ المصاحب للإخراج ولكن يحد منه التدريب الاجتماعى على التزين والتنظيم .

٤ — الإحساس اللاذ المصاحب للتبول وهو يشبه الإحساس السابق ويلقى نفس الموقف .

٥ — الإحساس اللاذ فى لعب الطفل بعضو التناسل ويحول دونه تهديدات العقاب من الأب أو الأم .

ولقد اعتبر المحللون النفسيون اللذة فى نواحى النشاط الأربعة الأولى مشتقة من الأخيرة أى أن هذه الناحية من النشاط تثير لذة شبقية وبصرف النظر عن نصيب هذا القول من الصحة فإن هذه النواحى تعمد إلى الظهور طوال حياة الفرد فإن استطاعت أن تشكل سلوكه سميت عقدة ولا تعتبر العقدة شذوذاً إلا فى حالتها المفرطة وعلى هذا تكون العقد الناتجة من ضروب النشاط السابق هى :

١ ــ عقدة المغلقات Claustral complex .

٢ ــ عقدة الفم Oral complex .

٣ ــ العقدة الشرجية Anal complex .

٤ ــ عقدة المجرى البولى Urethral complex .

٥ ــ عقدة البتر أو الإخصاء Castration complex .

١ ــ عقدة المغلقات :

يعيش الجنين فى الرحم فى هدوء تام وسكون مطلق واستناد كلى إلى مشيمة الأم . لا يرغب فى شىء حيث حاجاته مشبعة أولا بأول . لا يشاركه فى رزقه أحد ولا ينازعه إنسان . ينعم بالدفء والراحة . كان فى حاله لا وعى كامل : لا يشعر بشىء ولا يأنى أى شىء . يحيا بعيداً عن كل أذى متحرراً من كل ألم ثم يولد فيحرم هذه اللذات كلها . فتثير صدمة الميلاد فى نفسه إحدى ثلاث :

ا) الرغبة فى استعادة الحالة التى كان عليها قبل الميلاد .

ب) إحساسه بالقلق والخوف من فقدان العائل .

ح) الرغبة فى المنطلقات وخوف المغلقات .

ا) الرغبة فى استعادة الحالة التى كان عليها قبل الميلاد : حيث يرغب الفرد فى إحدى الحالات الآتية المشابهة لحالته وهو فى الرحم .

الرغبة فى المغلقات : حيث يتعلق الفرد بالحياة فى كوخ أو معبد أو صومعة ولا يستطيع مغادرتها بل أنه يخاف ذلك وهذه الناحية مظاهر عديدة حسب الحياة التى يحياها كل فرد فهى القلعة بالنسبة للجندى لا يستطيع أن يغادرها وإلا فالشر محيط به ينتظره وهى الصومعة للعابد حيث العالم عنده ملىء بالشرور

وليس أفضل من أن يعتزله ويلتمس الأمن فى معبده أو فى ديرة ثم هى الله بالنسبة للصوفى حيث يفر إلى الله ويلجأ إليه ويستعيذ به .

لا نقول إن التفسير السيكولوجى — الذى يرد هذه الأنماط من السلوك إلى الرغبة فى استعادة الحالة التى كان عليها فى الرحم — هو علة لهذه الأنماط وإنما أن حالة الرحم تترك فى الفرد استعدادات تنميها وتفرزها البواعث الأخرى فالجندى يتعلق بقلعته لأنه بالفعل يجد فيها ما يقيه من شرور العدو ولو أمن ذلك العدو لغادرها دون خوف . أقول إن العوامل الأخرى هى التى تزيد فى تحديد over-determine هذا النمط من السلوك الذى يشابه فى مظهره حالة الجنين فى الرحم . وكذلك نقول فى كل ما سنعرض له من التفسيرات السيكولوجية .

الرغبة فى إيجاد حالة من اللاوعى : حيث يحاول الفرد أن يلتمس الراحة من هذه الحياة فيعمد إلى إفناء شخصيته فى موجود أعلى ليفتقد إحساسه بذاته بل لينكر على نفسه هذا الوجود وهذا ظاهر بشكل واضح فى اليوجا الهندية وكثير من طقوسها التى يعمدون فيها إلى تعاطى المخدرات لحرمان أنفسهم كل إحساس بالحياة . كذلك يجد كثير من الناس السعادة فى حياة الطفولة واستعادة ذكرياتها لا لذاتها — إذ قد تكون حياة الطفولة مليئة بالمنغصات — وإنما لأن فيها تعلقاً بالماضى وبذكراه وحنيناً إلى مسقط رأسه ، كأنما هو يود أن يقول إنه يود أن يعود إلى الرحم كما يود أن يعود إلى الطفولة لينعم بالتواكل وليرفع عن نفسه المسئولية التى يستشعرها فى حياته . ومن مظاهر هذا التعلق بالماضى التمسك بكل ما هو قديم متوارث ونسبة الخير إليه .

حياة العزلة : والشبه بينها وبين حياة الجنين واضحة حيث يرغب الفرد فى أن يعتزل الناس ليعيش وحده كما كان فى الجنين وحده .

اتقاء الأذى : حيث يخاف الفرد الاغتراب عن وطنه كما يخشى الأماكن المفتوحة .

ب) عقدة الخوف من فقدان العائل : لا شك أن عدم الاستجابة لرغبات الطفل تقوى هذه العقدة وهذه العقدة هى مصدر الشعور بالقلق حيث يخاف الفرد البعد عن أمه أو أبيه أو من يعوله . والقلق هنا مصدره خوفه من الأذى وطلبه الأمان فهو يخشى كل ما يسلبه أمنه : فهو يخشى السقوط من مكان

عال ، كما يخاف الغرق ومثلها خوف الطفل من الاستحمام ، وهذه العقدة أصل الخوف من الزلازل والحريق .

حـ) عقدة الانطلاق Egrssion Complex : ليس المنبه الذى أثار عقدة المغلقات هو نفسه الذى أثار هذه العقدة ، فالفرد لا يخاف الأماكن المغلقة ويرغب فى الأماكن المفتوحة لأن الرحم مكان ضيق كأنه سجن ، وإنما الذى أثار هذه العقدة الشعور بالضيق أثناء عملية الولادة فيصبح نزوله بهذه الصوره مقروناً بضيق المكان الذى كان فيه وصاحب هذه العقدة يحب الاستمتاع بالهواء العليل ويكثر من التنزه والانتقال ويخشى الوجود فى مكان مغلق لا يستطيع الخروج منه وإن تحكمت هذه العقدة ولدت لدى الفرد الميل إلى حياة الملاحين والمغامرين والمكتشفين .

ومن الطريف أن هذه العقد الثلاث قد تتداخل (حب المغلقات وحب المنطلقات والخوف من فقدان العائل) وذلك عندما يشعر الفرد أنه غير مرغوب فيه فهو يخشى فقدان العائل ويحب أن تتاح له الفرصة بحب أبويه فيتعلق بهم ولكنه يسلك سلوكاً مخالفاً لهاتين الرغبتين إذ يهيم على وجهه متنقلا لا يسكن إلى شىء .

٢ ــ العقدة الفمية :

يستمد الطفل لذته من المص سواء مص حلمة ثدى أمه أو من مص أصبعه ، وقد أصبح المص مستقلا فى الحافز إليه عن الحاجة إلى الطعام ، وليس أدل على هذا من إحساس الطفل بالتوتر والضيق إن منع من مص أصبعه ، وقد تمتزج اللذة المستمدة من المص باللذة المستمدة من الجنس كما هو واضح فى القبلة ، فليس الحافز إلى القبلة الجنس وحده ولا الفم وحده وإنما الاثنان معاً . وسنعرض هنا لجميع المظاهر السلوكية المرتبطة بالفم كالمضغ والعض وشهوة الكلام ، وسنحاول أن نركز اهتمامنا بثلاث عقد مرتبطة بعقدة الفم بحيث يمكن اعتبارها (أى هذه العقد الثلاث) حوافز أدت إلى مظاهر السلوك المختلفة التى سنعرض لها . كما يمكن الوصل بينها وبين صدمة النظام باعتبارها المنبه الذى أثار هذه الحوافز الثلاث ، وهذه العقد هى :

ا ــ اللاوعى والإحساس بالأمان كحافزين نتجا عما يصحب الرضاعة

من إحساس بالهدوء والسكينة والاطمئنان الكلى إلى المرضعة والانهماك التام فى الرضاعة .

ب — العدوان كحافز يثار أول ما تظهر الأسنان للطفل فيعض حلمة ثدى مرضعته لعدم تلقى الإشباع الكافى وما ينتج عن هذا العض من عقاب (حرمان الطفل من الثدى — ثم الفطام) يؤدى إلى عقدة قد تشكل سلوك الطفل .

حـ — القذف كحافز يثار كرد فعل لحرمان الطفل من الرضاعة والفطام .

١ — ا) عقدة الطمأنينة الفمية Oral assurance complex :

يحس الطفل بالطمأنينة المطلقة فى الرضاعة إلا أن الفطام يعكر عليه صفو هذه الطمأنينة ، ويتفاوت تلقى الطفل لهذه الصدمة حسب الظروف التى تحيط بها ، فهى قوية لو ظل الطفل يرضع بانتظام ثم حرم من مرضعته مباشرة ، فالتدريج فى حرمان الطفل لازم لتخفيف وقع العقوبة ، كما أن الاستبدال هنا ضرورى لتوزيع إحساسه باللذة من حلمة الثدى على الموضوعات الأخرى كحلمة البزازة ، كذلك يتوقف الأمر على حالة الطفل نفسها فمن الأطفال من لا يرضون بغير الثدى بديلا حتى فى غير أوقات الطعام وهؤلاء يصعب تخفيف وقع عقوبة الفطام عليهم ، إذ أن هؤلاء الأطفال مصابون بنوع من التثبيت فى اللذة الفمية ومثل هؤلاء يمصون أصابعهم إلى سن متأخرة ، ومن مظاهر الإحساس باللذة من الفم والاطمئنان إليها الإفراط فى التقبيل وتناول الطعام لمجرد اللذة فى تناوله ومص المشروبات حين شربها لما يصحب ذلك من لذة ، كما أن التدخين مرتبط بهذه العقدة .

ب) عقدة اللاوعى الفمية Oral passivity complex :

يكون الطفل أثناء الرضاعة منهمكاً كل الانهماك فيما لا يحس شيئاً مما يدور حوله ولا يستشعر أى شئ ومن مظاهر هذه الحالة عند البالغ المشابهة لها شدة التعلق بالمال باعتباره السند الوحيد فى الحياة فى نظر طلابه كما أن الثدى هو السند الوحيد فى حياة الرضيع .

وقد يحاول الفرد أن يسقط project هذه العقدة على غيره فلا يرغب فى مساعدة أحد ، بل يرى أن الناس يعملون على « امتصاص دمه » والتعبير اللغوى

هنا منطبق تماماً على الحالة النفسية لصاحبها ، فى حين أنه هو الذى يريد أن يمص وأن يمتص من دم الآخرين ويستنفد طاقتهم .

وقد ترتبط هذه العقدة بحب الاستطلاع فيتولد لدى الفرد الرغبة فى « الارتشاف من مناهل العلم وينابيعه » .

ومن مظاهر هذه العقدة كذلك شهوة الكلام والرغبة فى الإلقاء لذاته .

وإن انحرفت هذه العقدة وارتبطت بحافز جنسى أدى إلى جنسية مثالية موضوعها الفم (oral sex) fellative لا سيما إن هذه العقدة تؤدى إلى ضعف التقزز والنفور .

٢ ــ عقدة العدوان الفمى Oral agression complex :

يعض الطفل ثدى مرضعته بعد أن تظهر له الأسنان فى حالة الإحساس بعدم إشباع رغبته ، وهذا العدوان من قبل الطفل يقابله حرماناً من قبل الأم أو المرضعة مما يكون له أثره فى نفس الطفل ، إذ قد ينكص البالغ إلى ما يشابه حالة الرضاعة نتيجة عدم أشباع حاجته من الرضاعة ويتجلى هذا فى الإحساس باللذة من العض والمضغ وقرض الأظافر .

ولما كان العض منصباً أول الأمر على موضوع يتعلق به الطفل . كانت عقده العدوان الفمى مصاحبة لموضوعات محبوبة لدى الذات ومن مظاهر ذلك العض أثناء عمليه الجماع . والاحساس باللذة فى مضغ المأكولات الصلبة كاللحم وقرض العظام .

يفسر لنا هذا الحافز كذلك أكل البدائين لمعبودهم وهى شعيرة من شعائرهم التى يقيمونها فى الأعياد ويعتبر النقد والتوبيخ والسب مظاهر سلوكية لهذه العقدة لا سيما إن كانت موجهة لموضوع يكن لها الفرد فى نفسه الاحترام والتبجيل .

ومن مظاهر هذه العقدة كذلك لذة الطفل من الاستماع إلى القصص التى فيها كيف قبض على البطل وكيف مضغ وأكل أكلا . ويلجأ الطفل إلى هذه الحالات ليشبع غروره وشعوره بالاستعلاء كتغطية لاحساسه الشديد بالقصور كذلك يخشى الأطفال الغماريت التى ستنقض عليهم لتلتهمهم . كذلك يعمد الطفل المصاب بهذه العقدة أن يتقمص شخصية حيوان مفترس ليخشاه سائر الأطفال .

والعضة من مظاهر المص والعض معاً إذ هي صراع بين حركات عضلية بعضها معبر عن المص والآخر معبر عن العض وهي من الناحية السيكولوجية البحتة رغبة في العدوان ورغبة في إتقائه خشية الضرر الناتج عن ذلك فتنتج حالة من التلعثم في الكلام .

٣ ـ عقدة التقذف الفمي : Oral Rejection Complex

مثير هذه العقدة حوافز عديدة أهمها :

(أ) اتقاء الأذى : إذ يحس الفرد أن الطعام ضار : به قاذورات أو جراثيم . ويزيد في استحكام هذه الفكرة حالة من العصاب الوسواسي . وصاحب هذه العقدة يتجنب القبلة كذلك .

(ب) النفور rejection : يكون ابن الأم في كثير من الأحيان غير كفء فتستعيض الأم بأشياء أخرى : ولكن الطفل قد يحس إزاء ذلك بعدم الثقة فيعمد إلى أنماط من السلوك تدل على أنه قد أصبح في غنى عن أمه . ومن مظاهر هذه العقدة كذلك الزهد في الحياة والإضراب عن الطعام لأن شيئاً ما في نظره لا يمكن أن « يبتلعه » ولا شك أن هذه الصفات تميز الشخص المستقل الذي لا يعمد حتى في حالات العسر إلى الالتجاء إلى أحد حتى ولو كان أشد أقربائه بعد أن فقد ثقته في أمه في أحوج الأوقات إليها .

٣ ـ العقدة الشرجية :

يعتبر الإخراج في نظر علماء التحليل النفسي أحد مكونات الحافز الجنسي ذلك أن لذة تستثار في منطقة الفتحة الشرجية تبعاً لأنماط من السلوك مرتبطة بانقباض وانبساط هذه الفتحة . ويجد بعض الأطفال لذة في عملية الإخراج تبعاً لحساسية المرهفة للمستقيم . ما هي تلك الأنماط السلوكية التي تستثير لذة هذه المنطقة ؟

من المعلوم أن الطفل يمنع من الإخراج وقتما شاء عند سن معينة . إذ يجب أن يعتاد على التدريب الاجتماعي . بما فيه من إلزام بالإخراج قبل النوم ؛ ومنعه حتى يصل إلى مكان خاص . ومحاولة الاحتفاظ والإخراج فيها نوع من الاحتكاك يستثير لذة الطفل .

على أن الحافز الحقيقى لكل مظاهر العقدة الشرجية هو العدوان ، إذ أن الطفل يظن أن فى الإخراج دون ضابط – وهو أمر تغضب له الأم – اعتداء عليها ، كما أن فى إلزام الإخراج حينما تشاء إرضاء لها ، فتحمل العقدة الشرجية فى طياتها الإرضاء والعدوان ، وبهذا نستطيع أن نفهم مصدر مظاهر هذه العقدة.

واللذة المتولدة من الشرج ليست نتيجة الاحتكاك فحسب – ذلك الذى يولد حساسية مرهفة فى المستقيم فتتولد اللذة ؛ بل إنها نتيجة ما تولده المواد الإفرازية من حالة من التوتر يعتبر التخلص منها أمراً مريحاً يبعث على إنقاص الحافز وإبعاد التوتر ، فإبعاد حالة الامتلاء إذن هو ما يولد اللذة .

وفى العقدة الشرجية عاملان قد يتغلب أحدهما على الآخر . الأول هو الميل إلى الطرد أو الإخراج – عقدة الإخراج الشرجية ، والثانى هو المذيل إلى الاحتفاظ – عقدة الاحتفاظ الشرجية .

(ا) عقدة الإخراج الشرجية Anal ejection complex

من الملاحظ أن الأطفال المنبسطين أميل إلى الإصابة بهذه العقدة إذ يجد الطفل المنبسط صعوبة فى محاولة الاحتفاظ ، ومن مظاهر هذه العقدة اللعب والعبث بالقاذورات من وحل وطين وصلصال والرغبة فى الاطلاع على دبر الآخرين . ويعتقد معظم الأطفال المصابين بهذه العقدة أن الولادة تتم عن طريق المستقيم والشرج ومن سمات هؤلاء الأشخاص الميل إلى الفوضى وانعدام النظام لما فيه من تقييد لا يرغبون فيه وهم مفسدون لا يحملون تبجيلا لكائن ما فيحاولون التشهير بهم والنيل منهم .

والجنسية المثلية هى التعبير الكامل عن اللذة فى هذه المنطقة . وهناك صور أخرى أخف من ذلك فى الجنسية الغيرية .

ويربط ابراهام بين الإخراج وبين تعلم الطفل التخلص . فيرى أنه تعلم التخلص منذ تعلم تنظيم الإخراج ، ولكن يبدو أن الطفل تعلم التخلص فى مرحلة سابقة على ذلك لأنه يستطيع التخلص من المواد بواسطة الفم .

(ب) : عقدة الاحتفاظ الشرجية :

إن شدة تحكم سلطان الأبوين – لا سيما الأم – والذات العليا هى ما تؤدى إلى تغلب هذه العقدة . والطفل المفطوم أكثر ميلا إلى التأثر بمحاولة الاحتفاظ ، ومن هنا تبرز صفاته كعنيد ، يتفر من كل ما يصاحب الإخراج ،

يحتفظ بسره لنفسه ، قليل الكلام ، محافظ ، يخشى أن يطلع على سره أحد ، لأنه يخشى أن يطلع على عورته أو ما يخرج منه أحد ، ومن العجيب أن اللغة قد جمعت بين نتيجة الاطلاع على السر ونتيجة الاطلاع على العورة تحت لفظ الفضيحة ، ومن سمات هذا الشخص أيضاً أنه مقتر منظم مفرط فى النظافة ويخشى ارتياد الأماكن العامة ، وهو يؤثر الصمت لأنه يخشى أن يزل لسانه فيكون مثاراً للقيل والقال . الأمر الذى يتحاشاه . وهو يصل فى إفراطه فى النظافة إلى درجة الحصار إذ يعكر مزاجه أقل بقعة فى ملابسه .

ومن أوهام هذا الشخص التى يتحقق فيها وقوع ما يخشاه السرقة وأن أحداً يحاول أن يهتك عرضه .

٤ — عقد المجرى البولى :

تشبه هذه العقدة سابقتها فى كل شىء بما فيه التبول والتحكم فى البول .

٥ — عقدة البتر « الإخصاء » :

اعتبر بعض أتباع فرويد عقدة الإخصاء مصدراً لكل أنواع القلق ، إذ قالوا إن الطفل يخشى ارتداد مشاعره العدوانية إليه واتخاذها صورة البتر كرمز لكل من أنواع العدوان من العالم الخارجى عليه ، على أن من العسير أن نربط بين كثير مما يسبب الخوف والقلق وبين الخوف من البتر إذ أن الصلة بين الخوف من فقدان العائل أو بين الخوف من الوقوع أو من الغرق أو الحريق وبين البتر تكاد تكون معدومة .

وأصل عقدة لعب الطفل بعضو التناسل وما يلقاه من أبوية من زجر شديد يكاد يصل إلى التهديد ببتر هذا العضو أو هو يصل فعلا فى خيال الطفل إلى هذا الحد . ولا شك أن هذا يسبب للطفل كثيراً من المخاوف لإحساسه الشديد بأن هذا العضو هو أهم مقوماته كذكر .

وأصل هذا اللعب من جانب الطفل محاولة استكشافية للحياة الجنسية تثير لذة شبقية لديه ، وهى ما استرعى نظر فرويد فى الحياة الجنسية عند الطفل ، بل هى تكاد تشبه ما يقوم به البالغ من نمط سلوكى يعبر عنه بالعادة السرية ، والكبت فيها هو الصورة الأولى لكل أنواع الكبت الجنسى فيما بعد .

وتعتبر عمى الختان التى توارثتها أمم كثيرة أهم مختلف لهذه العقدة ، وإن وجودها فى أمم بدائية تكاد تجهل النواحى الصحية هو ما يحملنا على القول بأنها

أهم مظهر متوارث للعدوان على الطفل من العالم الخارجى يجد فيه علة لكثير من مخاوفه .

ومن الغريب أن قليلا ممن تناولوا الكلام عن عقدة الإخصاء حاولوا أن يبينوا ما يقابل هذه العقدة عند الجنس الآخر ؛ بالرغم من أنه لا يمكن أن ينتهى الكلام عن هذه العقدة دون تساؤل عما يقابلها ، وبالرغم من أن العقدة التى عند الإناث من الأطفال والبالغات أقرب إلى الوقوع من الإخصاء أو البتر ؛ لأن الفتاة أكثر تعرضاً للهتك من تعرض الفتى أو الطفل للإخصاء . ومن هنا كانت الفتاة أكثر تعرضاً لكل أنواع القلق الصادر عن هذه العقدة من الفتى . وإن كان حقيقة أن توهم الإخصاء يعنى فى نظر الطفل فقدانه أهم مقوماته كذكر وهو أمر غير موجود ما يقابله عند الفتاة ، إلا أنه يكفى أن تشهد طفلة حالة هتك حتى تستحكم هذه العقدة بل إنه يكفى أن تسمع شيئاً عن ذلك . واستحكام هذه العقدة عند الفتاة يؤدى إلى خوفها الشديد من الجماع حتى ولو كان مشروعاً ، إذ تجد فيه نوعاً من العدوان الصارخ عليها فتخشى الزواج أو تخشى أهم ما يقع فى الزواج .

خاتمة فى العقد :

لا يمكن أن تكون المنبهات التى ذكرناها هى وحدها السبب فى كل هذه الأنماط من السلوك إذ لا يمكن أن نفسر الخوف من الماء أو النار كنتيجة للخوف من الإخصاء . صحيح أن الخوف من الإخصاء عامل من العوامل التى أدت إلى هذا الخوف ، ولكن يجب ألا نغفل الأحوال التى شكلت هذا النمط من السلوك والتى أدت إلى وقوعه . فالخوف الشديد من النار نتيجة أن النار تحرق بالفعل . وليس تجنب الأذى إلا رمزاً لحالة كان فيها الجنين بعيداً عن كل أذى ، والواقع أن الحياة النفسية كلها لا تخضع لعامل واحد وإنما يشكل السلوك فيها عوامل متعددة متشابكة فليس كل ما ذكرناه عن العقد إلا أحوال بمناسبة وقوع هذه الأنماط من السلوك هذه المنبهات التى أثارتها .

تتفاوت العقد السابقة فى وقوعها قوة وضعفاً حسب صرامة العقاب الذى أدى بكبته النمط الطفلى من السلوك إلى تشكيله فيما بعد . فعقدة الفم تكون

أكثر استحكاماً وأشد قوة إن كانت صدمة العظام قوية شديدة على نفس الطفل . ولقد سبق أن أشرنا إلى أن استحكام هذه العقد يؤدى إلى حالة مرضية عصابية . لذا فإن من واجب التربية الأولى العمل على تخفيف وقع العقاب . فأن يحاط الطفل بجو مشبع بالعطف والحب والرعاية . كفيل بأن يخفف عن نفسه صدمة الميلاد . وأن يخفف من وقع صدمة الفطام كفيل بأن يخفف من الحالات المرضية التى قد تنتج عن استحكام العقدة الفمية . وأن يعود الطفل التزين والتدريب الاجتماعى فيما يختص بالعقدة الشرجية أو البولية فى شىء من الرفق كفيل بأن يمنح الطفل الثقة فى نفسه والإحساس بالقدرة على مجابهة الواقع . كذلك الأمر فيما يختص بعقدة الإخصاء التى ربما تكون أشد العقد فى صرامة العقاب فيها . إذ أن نهر الطفل عن اللعب بعضو التناسل يتم من أغلب الآباء فى شىء من الشدة والصرامة . الأمر الذى يشيع فى الطفل الخوف والقلق . فى حين أن الأمر لا يستدعى هذه الصرامة من حيث أن هذا اللعب برىء . وهى محاولة استكشافية للسلوك الجنسى فيما بعد . لا أقول بعدم نهر الطفل فى هذه الحالة أو بعدم تعويده التدريب الاجتماعى فيما يختص بالإخراج ، ولكن من الممكن أن يتم كل ذلك فى شىء من الإفهام الانفعالى — لا العقلى — بقيمة التدريب الاجتماعى حسب قدرة الطفل العقلية الأمر الذى يحببه فى المجتمع وسلطته فلا يشعر وكأن هذا المجتمع قد فرض سلطانه عليه فرضاً فيعمل الطفل من جانبه على مقاومته . وإفهام الطفل قيمة التدريب الاجتماعى مشابه لما يلجأ إليه التحليل النفسى من إفهام المريض علة مرضه إفهاماً وتعرفاً انفعاليا .

يتضمن القول السابق رداً على سؤال طالما تبادر إلى أذهان كثير من قراء علم النفس وهو أن المحللين النفسيين قد جعلوا الناس جميعاً مرضى من حيث أن العقد السابقة لا بد أن تقع لكل إنسان ، والواقع أن المحللين النفسيين قد جعلوا الفارق بين المريض والسوى فارقا فى الدرجة فحسب . وأن الحالة المرضية ما هى إلا استحكام عقدة موجودة عند سائر الناس بدرجة أخف . وأن استحكامها نتيجة خطأ التربية الأولى ، ومن هنا كان عمل المحلل النفسى إصلاح ما أفسدته التربية الأولى .

لم نستند فى معرفتنا للإصابات التى وقعت فى دور الطفولة إلى ما يذكره الشخص عن نفسه من حيث أنه عاجز عن أن يذكر شيئاً عن المرحلة السابقة

على النطق pre-verbal period ، وإنما استندنا فى ذلك إلى معرفة أوهامه وأحلامه وخيالاته حيث يطلعنا تفسيرها على تلك الإصابات التى هى علل السلوك ، على أن دراسة الأحلام تتطلب الشهور الطوال ولذا اتخذت وسائل أخرى لمعرفة خبايا اللاشعور دون استثارة الشخص إلى محاولة كبتها ، وقد أمكن الوصول إلى ذلك باستخدام « طريقة الإسقاط » Projection method . وتتلخص هذه الطريقة فى مطالبة الشخص أن ينسج قصة من خياله حول صورة ما ، فالقوة الإبداعية فى هذه القصة تعبر عن ميول الفرد وإصاباته ، وهو يعمل على أن يخلع هذه الميول على الصورة التى أمامه ، وعمل المحلل إذن هو تفسير ما نسجه الخيال الذى غالبا ما تكون أحداثه قد وقعت فى المرحلة السابقة على النطق ، وتحليل الخيالات وتصنيفها مشابه لما سماه فرويد « بالمحتويات الظاهرة manifest content » كما أن تفسير هذه الخيالات هو ما سماه بالمحتويات الباطنة latent content » وعمله هنا كعمل الطبيب الذى يتعرف على أعراض المرض أولا تمهيداً لتشخيصه ، ولكن كيف يمكن الوصول من معرفة الأعراض إلى تشخيص المرض؟ يتوقف هذا على حدس المختبر وبصيرته ، ولكن لما كان العلم لا يعترف بهذه النزعات الفردية وإنما يطالب بقواعد ثابتة ، إن اتبعها الأعمى استطاع الوصول ، كان لا بد أن يبحث الحالة عدة مختبرين ويصنع كل منهم نتائجه وأدلته عليها ، ولكن اختلاف النتائج بين المختبرين سيقلل من أهمية البحث ، الأمر الذى يتطلب اتباع طرق عديدة لتشخيص المرض ، أو للكشف عن الإصابة التى وقعت فى الطفولة وسنجمل هنا أهم هذه القواعد المتبعة :

١ ــ عقد الجلسات conference

يبدأ الاتصال بالمريض بمجالسته لمعرفة بعض المعلومات العامة عنه وللاحظته فى أقواله وطريقة كلامه وحركاته دون أن يشعر هو بذلك ، ويجب مراعاة أن تتم الجلسة فى جو طبيعى حتى لا يتكلف المريض فى جلسته أو فى أقواله ، وتدور معظم الأسئلة عن عمل المريض وحالة أسرته وعن مدى اتصاله بالناس. ولقد ضرب المؤلف مثلا للأسئلة التى تدور فى الجلسة بسؤال وجه لطالب فى الجامعة عن وجود طالبات معه فى الكلية ومدى اتصاله بهن فقال : لقد كان

معى فى الفصل طالبتان ، ثم سكت قليلا . يبدو أنهما من أسرة راقية (وفى هذا ما يدل على رغبة الاتصال بالأسرة الراقية) ولكن تبين لى أنهما يهوديتان (لديه تعصب طائفى) ولقد أردت أن أشترك فى ناد ولكن تبين لى أن أعضاءه من اليهود ، فاعتزلت كل نشاط اجتماعى وقرضت الشعر ، ولكن هذا أثار سخرية الآخرين منى (خوفه من أن يكون موضع السخرية) فاعتزمت أن أصلح عيوبى (شعور بالنقص) .

٢ — تاريخ الحياة Autobiography

ترجع أهمية تاريخ الحياة إلى أنه يعطينا صورة عن حياة الشخص من وجهة نظره هو وليس من المستبعد أن يذكر الشخص فيها بعض الإصابات التى قد يكون لها أثر فى حياته ، ويراعى فى تاريخ الحياة أن يسترسل الشخص فى الكتابة دون أن يتقيد باتصال الأحداث حتى يتداعى فى كتابته تداعيا كفيلا بأن يكشف عن شىء مما فى أغوار اللاشعور ، وتعطى للشخص أسئلة يسترشد بها دون أن يتقيد بما فيها بل يستحسن أن ينظر إليها ثم يطويها ويبدأ فى الكتابة تاركاً نفسه على سجيتها ، ويجب تنبيه الشخص إلى ضرورة التوسع فى ذكر أهم ذكريات الطفولة لا سيما فيما يختص بالناحية الجنسية ، كرأيه وهو طفل فى الولادة وعما إذا كان قد لاحظ صلة جنسية .

٣ — اختبارات الإسقاط

لا تكشف لنا الجلسات أو تاريخ الحياة إلا عن « المحتويات الظاهرة » ونريد هنا أن نستخدم الخيالات لتكشف لنا عن هذا السر المغلق ، واختبارات الإسقاط عديدة : منها أن يطلب من المريض أن يمثل دوراً يتقنه فمحاولة المريض أن يتقمص بطل هذا الدور تعد إسقاطا لما فى نفسه على هذا الموضع الخارجى ، وإن كان من العسير فى هذه الطريقة ، أن يتخلى الكائن عن مقاومته الذاتية .

(ب) : استخدام الخيال الأدبى : Appreciation Test يطلب من الشخص أن يسرد قصة من خياله حول صورة معينة : ذاكراً ما يتصوره من حوادث أدت إلى هذا المنظر ، وما يمكن أن يأتى بعد هذا المنظر وقد لوحظ أنه حين

قدمت صورة ولد فى السابعة عشرة من عمره أن ٦ من ١١ من الطلبة ذكروا أنها صورة طالب فى حين أن ١٢ شخصاً من غير الطلبة لم يذكروا شيئاً من ذلك .

(جـ) اختبار القدرة التخيلية : وهى طريقة روورشاخ حيث يعطى للشخص ورقة عليها بقعة من الحبر . لا تدل فى ذاتها على شىء ولكنها تكشف عن أشياء . من ذلك أن شخصاً تخيل فى بقعة الحبر أثنين يمدان يديهما للسلام . وقد تبين أن لدى هذا الشخص رغبة قوية فى التصادق مع الآخرين . ولم تشبع هذه الرغبة بعد .

(د) اختبار المحسنات البديعية : Similes Test وفى هذا الاختبار يعطى الشخص بعض صفات مثل — خطر — عميق — مقدس — ويطلب منه أن يسرع فى ذكر أسماء لهذه الصفات . وقد ذكر أحد الأشخاص وكان قد وقع له حادث فى الحرب (الديناميت خطر) .

وقد ذكر المؤلف طرقا أخرى للاختبار . ولكنا نكتفى بما ذكرنا لبيان كيف تستخدم هذه الوسائل لمعرفة الإصابات Traumas .

خاتمة :

بالرغم من أن الناس جميعا معرضون لهذه العقد . بل إنه لا يكاد يخلو منها إنسان فإن هذه العقد فى ذاتها ليست شراً يشيع الخوف أو يشيع السخط على التحليل النفسى ومنتجه ، فالشر كامن فى استحكام هذه العقد . وهذا لا يكون إلا فى صراحة ما يلقاه الكائن من حرمان . وشدة الحاقر النفسى الذى لقى هذا الحرمان . وارتطم بالعقاب فانقلب إلى اللاشعور حيث يعمد إلى الظهور من جديد . معظم الأمراض النفسية إذن مردها إلى خطأ التربية الأولى ، وقد أشرنا إلى أن عمل التحليل النفسى . يقف عند إصلاح ما أفسدته هذه التربية . ومن هنا جاز القول أن ليس هناك طفل عصابى وإنما هناك آباء عصابيون ، حيث يدفعهم الحنان الزائد إلى حرمان الطفل من كل شعور بالاستقلال . لمواجهة الحياة ، فينشأ الطفل عديم الثقة بنفسه ، يود أن يبقى طول حياته متواكلا مستنداً إلى الغير ، أو تدفعهم القسوة المفرطة إلى إحاطة الطفل بجو من الرعب والقلق . فينشأ قلقاً تكتنفه المخاوف وتسيطر عليه قسوة

« الأنا الأعلى » الممثل لسلطة الأبوين ، فيرى الشر فى كل ما يقدم عليه ، وليست أمراض الفصام إلا نتيجة لهذه الصرامة التى لاقاها الطفل .

على أن الواقع يجذب الطفل ويدفعه إلى البعد عن هذه الأنماط الطفلية ، ويشعره بالرضا فى دور النضوج ، فالطفل على استعداد لأن يتنازل عن كل ملذاته التى يجدها فى الرضاعة من أجل أن يشعر أنه أصبح كجميع من حوله يأكل مثلما يأكلون ويسلك كما يسلكون وفى هذا ما يباعد بين الناس وبين الأمراض العصابية . إذ ليست هذه الأمراض إلا نكوصاً لأنماط طفلية .

وهكذا تسير حياة الناس فى صراع وكفاح بين أنماط طفلية يستشعر فيها الإنسان الراحة والدعة ورفع المسئولية والتواكل . وبين الواقع الذى يلزم المرء بالنضوج بكل ما فيه من مسئولية واستقلال . وفى الأولى يكمن المرض وفى الثانية الحياة السوية . والنصر فى أغلب الأحيان معقود للواقع ولكنه نصر يترك وراءه آثارا — لا خوف منها — فى اللاشعور .

أحمد محمود صبحى